في الحجاج والنقاش

دراسة نص من سورة النمل

(من سورة النمل «من آية ٥٩ إلي آية ٦٦)

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

قال الله تعالى:

﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، ءآللّه خير أمّا يشركون * أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السمآء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلهٌ مع الله بل هم قوم يعدلون * أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً، أإلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، أإلهٌ مع الله، قليلا ما تذكرون * أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإلهٌ مع الله، تعالى الله عما يشركون * أمّن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإلهٌ مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون. بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها، بل هم منها عمون﴾.

تعريف عام بالآيات:

تأتي هذه الآيات بعد عرض مفصل لقصص بعض الأمم السابقة مع أنبيائهم الذين بعثوا اليهم وكيفية إهلاك الله لتلك الأمم بسبب عتوهم وطغيانهم في الأرض.

ولما كان في هذه القصص عبرة لأمة محمد (ص) وفيها الدليل على وحدانية الله تعالى ووجوده والرد على الباطل الذي يتمسك به الكافرون والجاحدون ـ عقب الله عليها بالإلتفات إلى هؤلاء الكافرين يستنهض عقولهم للعبرة والتأمل، ويناقشهم في باطلهم الذي يحتضنونه، بمختلف البراهين والأدلة القاطعة التي يرونها من حولهم.

والآيات تعرض أربعة أصناف من الأدلة تناقش الكافرين على أساسها:

الصنف الأول: أدلة تتعلق بمجموع الكون بما فيه من سماوات وأرض.

الثاني: أدلة تتعلق بكثير من خصائص الأرض وسماتها التي يبصرونها بأعينهم او عقولهم.

الثالث: أدلة هامة تتعلق بذواتهم وأنفسهم والنعم الحاصلة لهم.

الرابع: دليل النشأة الأولى، وما يستلزمه من دليل الإعادة بعد الموت.

وكما ترى، فإن اسلوب النقاش والإحتجاج على الكافرين بهذه الأدلة، قائم على أساس الإستفهام المتكرر وما يليه من أجوبة عنهم عليها، لما فيها من تقريع وتأنيب ودفع إلى التأمل.

شرح الآيات:

ـ تأتي الآية الأولى في هذا النص، فاصلة بين قصص الأنبياء السابقين التي ظلت الآيات السابقة تعرضها من أول السورة، وما سيليها من مواجهة الكافرين بالمناقشة والمحاجة.

والخطاب في هذه الآية الفاصلة موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، يأمره فيها ـ وقد سمع ما أخبر به عن قصص تلك الأمم التي حاق بها الهلاك والدمار وأولئك الأنبياء الذين لاقوا من أقوامهم صنوف الإيذاء ـ أن يحمد الله عز وجل على أن خص أمته هذه بالرحمة واللطف فقضى أن لا يهلكها بمثل ما أهلك به أولئك الآخرين، رغم تشابه الإعراض والإيذاء في كثير من الحالات، وأن يسلم على أولئك الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته فعذبوا واضطهدوا ولم يمنعهم ذلك من القيام بأمر الله عز وجل.

ثم يأمره بعد هذا أن يتوجه إلى المشركين الذين من حوله سائلاً: هل الإيمان بالإله الحق الذي فعل كل ما قد ذكر بالأمم السابقة أفضل أم الإيمان بما تؤلهونه من المخلوقات أياً كانت؟ وهذا الإستفهام جار على قصد التقريع للمشركين وتسفيه آرائهم السقيمة، وإلا فمن الواضح أنه لا يوجد أي تلاق في جنس الخيرية بين الأوثان التي يؤمنون بها والإله الواحد جل جلاله، حتى يتصور

معنى التفاضل والسؤال عن الأفضل منهما، فهو كما تقول لمن سلك مسالك الغواية والشقاء: ويحك هل الشقاء خير أم السعادة؟ !

ولما كانت هذه الخيرية، رغم وضوحها، خفيةعن أذهان الكافرين، أو كالخفية بسبب تكبرهم وعنادهم في الباطل الذي لا يريدون التحول عنه، عقب الله هذا الإستفهام بآيات تكشف عن مظاهر ألوهية الله عز وجل وتفرده في الخلق والإبداع والتحكم في مقاليد الكون، ليتضح للمشركين أيهما خير: الله عز وجل أم ما يؤلهونه من المخلوقات أياً كانت؛

ـ ﴿ أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون﴾.

هذه أول آية من هذه الآيات التي سيقت مساق الكشف عن بعض مظاهر ألوهية الله جل جلاله، تأتي بأسلوب الإستفهام ليكون فيها معنى الإحتجاج والمناقشة والدفع إلى التأمل وإعمال الفكر.

وأم التي في أولها، أم المنقطعة، بمعنى بل، وهي للإضراب الإنتقالي عن الكلام السابق إلى سؤال آخر: ﴿ من خلق السموات والأرض وأنزل لكم. ﴾الآية.

والسماوات هنا كل هذه الأجرام العلوية بما فيها من كواكب وغيرها، والسماء في قوله: وأنزل لكم من السماء ماء هو جهة العلو، إذ كل ما علاك فأظلك فهو في اللغة سماء.

وكان من مقتضى نسق الآية أن يقول: فأنبت به حدائق، فلماذا وقع الإلتفات عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم؟

إن الذي اقتضى ذلك هو أن أحداً لاينسب إلى نفسه خلق السماوات وإنزال الأمطار، فحسب السؤال عن خالقها ومنزلها، بهذا الأسلوب، منبهاً إليه جل جلاله. أما إنبات الزرع والأشجار فكثيراً ما ينسبه صاحب البذر والسقي إلى نفسه فيقول: أنبت الزرع والبستان، فناسب الإلتفات به إلى ضمير المتكلم تأكيداً لاختصاص الإنبات بذاته تعالى وإشعاراً بأن ظهور النبات يشق باطن الأرض بألوانه الزاهية وطعومه المختلفة وخصائصه المتنوعة إنما هو من فعل الخالق جل جلاله، ومن أجل المزيد من تقرير هذه الحقيقة قال بعد ذلك: ما كان لكم أن تنبتوا شجرها.

وجواب الاستفهام محذوف؛ دلّ عليه حكم العقل والكون، على أن الذي ينتظر منه الجواب هم المخاطبون. ولقد رتب الله على هذا الجواب المعلوم استفهاماً آخر متفرعاً عنه ومرتبطاً به: أإلهٌ مع الله، أي أإله آخر يوجد مع الله الذي تفرد بهذه الأفعال؟ ونكّر المبتدأ بعد الإستفهام الإنكاري

لتعميم النفي، وليكون المعنى: أيوجد أي إله آخر مع الله جل جلاله.

ويلتفت الخطاب عنهم بعد ذلك، مضرباً عن حديثه معهم وسؤاله إياهم، ليحكي صفتهم وحالهم العجيبة للآخرين قائلاً: بل هم قوم يعدلون أي كأنه يقول ملتفتاً: ولكن ما الجدوى من نقاشهم والبحث معهم؟ إنهم قوم يعدلون عن الحق، أو هم يعدلون بالله غيره من الأوثان والمخلوقات!.

﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

إضراب آخر، أريد به الإنتقال إلى دليل كوني آخر متعلق بكثير من خصائص الأرض وسماتها الواضحة من حولهم وأمام أعينهم. أي لنترك أمر السماوات وحديث المطر والإنبات إلى حقيقة أخرى. من هذا الذي جعل لكم الأرض قراراً؟ وكلمة «قراراً» هذه تعني كل ما قد أودع الله الأرض من الخصائص التي تجعلها قارة بنفسها وتجعل الناس متمكنين من القرار عليها، سواء فيما يتعلق بلينها وصلابتها وطبيعة الأنبات المودعة فيها وضبط ثقلها وخفتها ومدى بعد الشمس عنها، ونظام الجاذبية التي فيها، وغير ذلك مما لا يزال العلم يكتشفه وينتبه اليه، كل ذلك عبر عنه البيان الإلهي بالكلمة الجامعة: قراراً.

ومن جعل على وجه الأرض أنهاراً تتخللها كتخلل الشرايين في الجسد إذ تمده بالقوة والحياة؟

ومن أقام عليها جبالاً ثوابت ثقالاً تمنعها أن تميد بأهلها، وتتكون في باطنها كنوز المعادن وتحتفظ في جوفها بالينابيع الثرة من المياه، وعبر عن الجبال بكل ما فيها من الصفات، بالرواسي وهي جمع راسية، أي مستقرة وثابتة، وأنت لا تطلق هذه الكلمة على كل ما يستقر إلا إذا كان ثقيلاً جسيماً، فلا تقول أرسيت الكأس مثلاً، وإنما تقول أرسيت الصخرة أو البناء أو نحو ذلك.

ومن جعل بين البحرين حاجزاً؟ وتثنية البحرين من التغليب، أي البحار والأنهار، ومعلوم أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون البحار أخفض من مستوى الأنهار، حتى لا تنصب فيها مياه البحار فيفسد طعمها، وحينما تنصب مياه الأنهار في البحر فإنها تتخذ لنفسها في عرضه طريقاً مستقلاً يمتد أشواطاً كثيرة دون أن يمتزج كل من الماءين بالآخر.

والذي اقتضى ذلك اختلاف طبيعة الماءين التي قدرت بخلق الله وحكمته الباهرة حتى تؤدي كل من البحار والأنهار خدمات نوعية مستقلة لهذا الإنسان.

وتقف الآية هنا أيضاً عن الإجابة على هذا السؤال انتظاراً لإجابة المخاطبين، وإتاحة للفكر

المتأمل أن ينصت خاشعاً إلى الجواب ينبعث من فم الكون كله: إنه الله وحده.

ويأتي السؤال مرة أخرى مرتباً على هذا الجواب المعروف: أإله مع الله؟!. أبعد هذا كله يوجد أي إله آخر إلى جانب الله جل جلاله؟

ويلتفت الخطاب عنهم مرة أخرى ليحكي حالهم العجيب للآخرين: بل أكثرهم لا يعلمون؛ ولما كانت المسائل المستفهم عنها يتوقف الفهم والتقدير التام لها على العلم، قال في حكاية حالهم المسببة لغرورهم وجحودهم: بل أكثرهم لا يعلمون. وفيه مالا يخفى من حمل الناس على التأمل في دقائق الكون ومعرفة ما يقوم عليه من النظام ودقة الخلق والصنع.

● **﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، أإله مع الله، قليلاً ما تذكرون﴾.**

وينتقل الحديث بإضراب ثالث إلى أدلة من نوع آخر، قائمة في كيانهم ومستقرة في نفوسهم.

إن من خصائص الإنسان أنه إذا نزلت به شدة من الشدائد وحزبه أمر من بلاء أو مصيبة، والتفت من حوله فافتقد الوسيلة المنقذة والصديق المساعد وضاق عليه الخناق، أخذ يرمق السماء بطرفه يدعو الله عز وجل في ضراعة وذل، ولعله كان لا يعرف الله في أوقات الصفو والرخاء.

وهذه الطبيعة الكامنة في الإنسان من أعظم الأدلة على أنه مفطور في حقيقته على العبودية لله عز وجل والإيمان به، وأن كل انحرافاته التي تبعده عن هذه الفطرة إنما تأتي بسبب غاشية من الغفلة أو سكرة من الكبرياء الكاذب أو الشهوات المتأججة، وسرعان ما يرتد إلى فطرته الأصلية إذ يهتز كيانه بسبب بلاء خانق أو كرب مطبق فيتساقط عنه كل ما قد تعلق به من غواشي الغفلة ومسكرات الشهوات والأهواء.

فمن الذي يستجيب لهذا المضطر اذا دعاه متضرعاً له آيباً إليه؟ فالسؤال، فيه تذكير كما ترى بهذه الفطرة الإنسانية، وفيه بيان أن الإنسان إذا أصابه ضر شديد ضلَّ عنه كل من يدعوه ويعتمد عليه إلا الله جل جلاله، و «أل» في المضطر للجنس لا للاستغراق، فلا يلزم أن تكون الإستجابة من الله عامة لكل الداعين من المضطرين.

ومن الذي يكشف السوء عنكم بكل أصنافه ومظاهره.

ومن الذي يجعلكم خلفاء الأرض؟ أي تتوارثون سكناها والتصرف فيها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن؛ وكم في هذه المظاهر من دلائل العظمة الإلهية في تنظيم حياة هذه الخليقة على وجه

الأرض! . دفعة من بني الإنسان تأتي إثر أخرى، هذه تأتي من باب الولادة، وتمضي الأخرى من باب الموت. ولو تجمعت هذه الدفعات البشرية مع بعضها لضاقت بها الأرض وفسد نظام الحياة، وتخلفت الحكمة الكبرى من الإيجاد والخلق. وانظر، فإن في هذه الجملة المختصرة المثيرة للفكر: ويجعلكم خلفاء الأرض، تعبيراً عن هذه الحقيقة كلها، فما أعجب البيان القرآني وما أروع! . .

وتقف هذه الآية أيضاً عن الجواب الذي تنطق به الفطرة الإنسانية في أوضح بيان. . ليكرر السؤال المترتب على الجواب المعروف: أإله مع الله؟ وهنا أيضاً يحكي حالتهم التي تصدهم عن الإيمان بالبدهيات، ولكنه لا يقول هذه المرة: بل أكثرهم لا يعلمون، كما ذكر في الآية السابقة، ذلك لأن هذه الدلائل القائمة في فطرة الإنسان وكيانه، لا تحتاج إلى علم مجهول، وإنما تحتاج إلى تذكر شيء معلوم متلبس بالإنسان نفسه، ولذلك قال: قليلاً ما تذكرون، أي تذكراً قليلاً ما تذكرون: وهو تعبير خاص أريد به عدم التذكر مطلقاً.

●﴿أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون﴾.

إضراب انتقالي الى نوع آخر من الأدلة يحاجج بها الجاحدين ويناقشهم.

من المعلوم أن الإنسان يتعرض لتيه من الضلال تتضاءل عنده حيلة الإنسان ويظهر فيه ضعفه في حالتين اثنتين: عندما يغشيه الظلام المطبق بليل في فلاة، وعندما يتيه في زرقة لا حدود لها من زرقة البحر والسماء، وما رقي الإنسان أقرب إلى التعرف لحقيقته الضعيفة وعبوديته لله عز وجل، منه في إحدى هاتين الحالتين. فمن الذي يهدي الإنسان في كل من هاتين الظلمتين. ولك أن تفهم من الظلمات معناها الحقيقي وذلك إذ يلتقي تيه كل من الفلاة والبحر بظلمة الليل البهيم، وأن تفهم منها معناها المجازي، إذ جعل مفاوز البر التائهة ولجج البحار الهائلة كأنها ظلمات مطبقة يضل فيها الإنسان ولا يقع على علم يتعلق به أو يهديه.

ومن يرسل الرياح بشراً، أي مقدمة تبشر بالخير، بين يدي رحمة الأمطار إذ يبعثها الله على الأرض لتخرج ما في بطنها ولتقدم خيراتها لمن على ظهرها؟ والرياح تطلق على ما يأتي بالخير من المطر وغيره، فإذا قلت: ريح فهي ما يحمل في طواياه الشر على اختلاف درجاته وأشكاله ولقد كان من شأن النبي (ص) كلما رأى هبوب الهواء أن يقول: اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً.

ويعيد البيان الإلهي نفس السؤال السابق: أإله مع الله؟ ويلتفت عن الخطاب لهم مرة أخرى، ليقرر تنزيه الذات الإلهية عن لغو الجاحدين وضلالهم قائلاً: تعالى الله عما يشركون.

● ﴿أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

نوع آخر من الإستدلال والتنبيه، تنطوي فيه قصة هذه الخليقة في بدئها ومستقرها، وفيه ـ مع اختتام ألوان الحجاج والنقاش ـ إلماح بالإنذار والتهديد وتأكيد ليوم البعث والحساب.

والسؤال هنا عن ذاك الذي بدأ الخلق من العدم، والذي يعيده مرة أخرى إلى الوجود.

فأما الشطر الأول من السؤال فواضح، والشأن فيه أن يكون معلوماً لكل عاقل أنه الله عز وجل، أما الشطر الثاني، فيرد عليه ـ في الظاهر ـ أن الجاحدين لا يؤمنون بالإعادة فكيف يتجه السؤال إليهم عن ذلك؟ غير أن التعبير القرآني يريد أن يوضح للأذهان المتأملة أن الإيمان بالخلق الأول يستلزم الإيمان بالإعادة، ذلك لأن الإعادة أهون من البدء فيما يقرره العقل، ولأن قصة هذه الحياة الدنيا تظل ناقصة، وتظل ـ بأحداثها ووقائعها ـ فصلاً واحداً من قصة طويلة. إذ في هذه الحياة طغاة لم يجدوا القصاص العادل في حقهم، وفيها مستضعفون مظلومون لم يصلوا إلى ما ينصفهم من ظالميهم. ولا ريب أن الذي أبدع هذه الخليقة وتركها تتصرف كما تشاء في حرية وإرادة، سوف يعيدها إلى حياة أخرى يسود فيها الحق ويستقر فيها العدل.

فمن أجل ذلك أظهرت الآية الرابطة المتمكنة بين الخلق الأول والإعادة الثانية.

ثم تسأل الآية: ومن يرزقكم من السماء والأرض، أي بأسباب سماوية وأرضية مرتبة على بعضها، وأنت تعلم أن اليهما مرد كل الأرزاق التي يعيش بها الإنسان.

أإله مع الله بعد كل ذلك؟ ويأتي الإلتفات عنهم هنا ليختم هذه الحجاج والبراهين السابقة كلها بقوله مخاطباً الرسول (ص): ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.. أي هذه هي براهين وجود الله ووحدانيته وألوهيته يقرها العقل ويدركها المنطق، فقدموا بدوركم براهينكم التي تعتمدونها في جحودكم وإنكاركم لهذه الحقائق.

هذا، ولك أن تذهب في إعراب «أمن» التي صدرت بها الآيات السابقة، مذهباً آخر، فتعتبر من موصولة على الإبتداء وتقدر خبره على ضوء الجملة الأولى في الآيات: ﴿ءالله خير أم ما يشركون﴾ فيكون المعنى: بل أألذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً.. خير أم ما يشركون. وتحلل سائر الآيات الأخرى على هذا التقدير. وقد ذهب معظم المفسرين هذا المذهب في إعراب الكلمة.

غير أن الذي ألحظه من سياق الآيات، وأشعر به من ذوق المعنى ومقتضاه أن الطريقة التي

اعتمدناها في إعراب الآيات من اعتبار «مَن» استفهامية، أقوى دلالة وأقرب استساغة وأبعد عن التكلف. وإذا دارت الجملة بين التقدير وعدمه فعدم التقدير أولى، ومثله في القرآن قوله عز وجل في سورة الملك ﴿ **أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور**﴾.

● ولما ختم الحديث عن البراهين على وجود الله ووجدانيته بالحديث عن عود الناس إلى الحياة من بعد الموت، وكان في هذا ما ينهض الجاحدين إلى استبعاد الحشر والمطالبة ببيان الأدلة والعلامات التي توضح ميقات ذلك اليوم وأجله ـ قال جلّ جلاله مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون**﴾ أي ليس لأحد مطمع في الإطلاع على ما استأثر الله بعلمه من المغيبات، ومن أهمها الميقات المحدد في علم الله لقيام الساعة، وليس الإيمان بها متوقفاً عقلاً على معرفة زمانها وميقاتها.

● ثم تختم الآيات بهذه الآية الأخيرة التي فيها التحليل والوصف الدقيق للإضطراب الفكري الذي يطوف في أذهان الملحدين، وفيها التقريع العجيب لهم والسخرية بحالهم: ﴿ **بل ادّارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها، بل هم منها عمون**﴾.

ففي الآية ـ كما ترى ـ إضراب عن كل ما قد سلف من النقاش، ليقول من ورائه بأسلوب الحكاية عنهم: إن هؤلاء قد تجمعت لديهم أقصى ما يمكن أن يفهموه عن الآخرة وأدرك بعضه بعضاً، ووصلوا من ذلك إلى الغاية التي لا حاجة لهم عندها إلى علم جديد يلقونه ويبصرون به؛ وهذا تصوير لبعض الحالات التي تعتري الملحد من الإعتداد بفكره وفهمه حتى ليخيل إليه أن قد تداركت وتجمعت في ذهنه الحقائق العلمية كلها.

ولكنه لا يلبث أن يضرب عن هذا الوصف، ليصفهم بحالة أخرى: بل هم في شك منها، أي أن الظنون والأوهام تأخذهم وتردهم في أمرها فهم يتساءلون: ألعل ما يقوله المؤمنون هو الحق؟ إلا ليس كذلك!. ولكن من المحتمل!.. وهو مظهر للإضطراب الفكري القلق الذي يبعث في النفس عذاباً لا يتصور شدته إلا من يعانيه. وهذا تصوير لحالة تنتاب الجاحد والملحد.

ثم ينتقل البيان إلى آخر وصف؛ هو الوصف الثابت الحق في شأنهم وهو مدار الحالات الأخرى التي تعتريهم: بل هم عنها عمون، إنهم من الآخرة في عماهة مطلقة يتخيلون معها ذبذبات الظلام علماً وفهماً، ويتصورون معها أنهم حينما يشكون ويضطربون إنما يبحثون ويتأملون وهيهات منهم ذلك.

والله سبحانه أعلم.